نظرة على القصور الصحراوية
من خلال بعض مقالات الأستاذ الدكتور علي حملاوي رحمه الله

د/بن نعمان إسماعيل
أستاذ محاضر معهد الآثار بجامعة الجزائر

يعد الدكتور علي حملاوي (1957–2009) أحد الباحثين الجزائريين في ميدان علم الآثار، والأكثر اهتماما بدراسة القصور الصحراوية، تدرج في مسيرته العلمية الجامعية في جامعة الجزائر إلى غاية حصوله على دكتوراه في الآثار الإسلامية سنة 2001 بأطروحة خاصة بقصور منطقة جبال عمور في ولاية الأغواط.

ترك لنا تراثا علميا مهما في ميدان دراسة القصور الصحراوية، تمثل في مجموعة من المقالات نشرت في دوريات جزائرية وعربية، بدأها بمقال حول منهجية البحث حول القصور الصحراوية، دراسة نموذجية لقصور منطقة الأغواط، سنة 1995 ضمن فعاليات الملتقى الثالث للبحث الأثري والدراسات التاريخية الذي عقد بولاية المسيلة، وآخر مقال خصصه لتأثير البيئة الصحراوية على العمران والعمارة، وادي ريغ نموذج، صدر في العدد السابع من مجلة آثار سنة 2008، إضافة لإصداره لكتاب حول نفس الموضوع عنوانه نماذج من قصور منطقة الأغواط.

والباحث عن سر هذا الاهتمام بالقصور الصحراوية من لدن الدكتور يجدها في عدة عوامل تجمعت كلها، وشكلت حافزه الأساسي، ونرى بأن أهم عامل هو كونه ابن المنطقة، فالإنسان لا يستطيع أن يتخلى عن جذوره الأولى مهما غير من محيطه، فالبيئة الصحراوية التي نشأ وترعرع فيها في الصغر كانت دافعه الأساسي والأول للاهتمام بدراسة القصور الصحراوية، والدافع الثاني هو نتيجة للدافع الأول والذي يمكن إرجاعه إلى الإهمال الكبير الذي وصلت إليه هذه القصور وانعكاسه على حالتها، أما الدافع الثالث فهو حسب تعبيره شخصيا، يتمثل في توجه الزيارات الميدانية لطلبة الآثار إلى القصور الصحراوية في الفترة الممتدة من سنة 1992 إلى سنة 1994، والذي كان بمثابة الباب الذي دخل منه إلى عالم القصور الصحراوية، وحوله من مجرد أمنية إلى واقع ممارس، وجسده في شكل مقالات كانت بمثابة انطلاقته نحو إعداد أطروحة الدكتوراه والتي عبر في بداية مقدمتها عن هذا الدافع بقوله: <<إن الزيارات المتكررة التي قمنا بها إلى منطقة جبال عمور خلال السنوات الفارطة (1992–1994)، وبالتحديد إلى مدينة الأغواط والقصور

المجاورة لها بمعية أساتذة وطلبة معهد الآثار سمحت بالتعرف عن كثب على بعض المنشآت العمرانية في غاية من الأهمية، نظرا لقيمتها التاريخية والأثرية والعمرانية>>.

وللتعريف ببعض مقالاته وقع اختيارنا على مقالين هما:

1- << القصر بالجنوب الجزائري: مفهومه ومكوناته >>، في:حوليات المتحف الوطني للآثار، العدد 10، 2001، ص.ص.31-53.

2- << البيئة الصحراوية وأثرها على العمران والعمارة وادي ريغ نموذجا >>، في: مجلة معهد الآثار بالجزائر، العدد 08، 2008، ص.ص.57-73.

عموميات حول القصور الصحراوية في الجزائر

مقال: القصر بالجنوب الجزائري: مفهومه ومكوناته

مهد الدكتور في مقاله هذا بعموميات وضح من خلالها المعنى الاصطلاحي للقصر ومفهومه من خلال القرآن الكريم، والمصادر اللغوية والتاريخية، وبين مكانته عند المسلمين منذ العهد الأموي الذي عرف بداية حياة البذخ والترف لدى الحكام المسلمين، ثم عرج على مفهوم القصر في الجنوب الجزائري الذي هو مختلف عما ذكر، فهو عبارة عن تجمع سكاني محصن بسور ومدعم بأبراج.

كما وضح في جانب آخر شروط اختيار موقع القصر، حيث ركز الدكتور على الربط بين اختياره ومدى ملاءمته للحياة البشرية، فهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب الفلاحي، لهذا تحيط به غالبا البساتين الخضراء لتزويد السكان بما يحتاجونه من مواد غذائية، كما تحميهم هذه البساتين من الزوابع الرملية، ويكون دوما قريبا من المجاري المائية، ويتمركز على قمم الجبال أو على سفوحها أو على هضبات صخرية صلبة.

ثم شرع في التعريف بالقصر كتجمع بشري، وبدأ أولا بتعريفنا بتسمية القصر التي تنسب غالبا إلى ولي صالح باعتباره مؤسس القصر، أو يرجع إليه الفضل في لم شمل سكانه، والأمثلة على هذا كثيرة، أو ينسب إلى الاتجاهات الجغرافية مثل القصر القبلي (الجنوبي) أو الظهراني (الشمالي)، وأحيانا تنسب إلى لون مادة بنائه، أو إلى القبيلة التي تقطن فيه، كما ترتبط تسميته كذلك بقدمه أو حداثته(قديم، جديد)، أو بحجمه (كبير، صغير) أو بموقعه (تحت، فوق)، وأشياء كثيرة يصعب حصرها كلها.

وأخيرا أسهب في توضيح كل مكونات القصر، الذي<< يتكون من الداخل من مجموعات سكنية موزعة على كل مساحات القصر، كما يمكن أن يحتوي على مجموعة من القصور المتقاربة يشترك أهاليها في الحدائق والغابات المحيطة بهم >> ص.38، والقصر يتركب معماريا من الأقسام التالية:

– الأسوار، فكل قصر يحاط بسور مزود بأبراج، وتفتح فيها مداخل تغلق بواسطة أبواب خشبية ضخمة.

– الأحياء: توزع حسب الانتماء القبلي، وأحيانا تحاط هي كذلك بأسوار بها أبواب تغلق في حالة حدوث الفتن بين القبائل، وكل حي يحتوي على مصلى.

– المسجد الجامع الذي يسمى بالجامع الكبير أو العتيق، وغالبا يتوسط القصر، وتقام فيه صلاة الجمعة وصلوات الأعياد الدينية، كما يستخدم أحيانا كمدرسة قرآنية.

– الشوارع التي توجه بما يتلاءم والظروف الطبيعية الموجودة في الصحراء، وتنقسم إلى ثلاثة أنواع رئيسية، أكبرها اتساعا واستعمالا الشوارع الرئيسية التي تضمن الربط بين داخل القصر وخارجه، وبين أجزاء القصر في حد ذاته وتتفرع عنها الشوارع الثانوية والدروب أو الأزقة، ويتغير اتساع الشارع حسب درجة استعماله.

– المساكن تتكون عادة من طابق واحد يعلوه سطح يزود بغرفة، وأحيانا تتجاوزه إلى طابقين، وهي خالية من النوافذ الخارجية، وتتركز نشاطات الأسرة فيها داخل الفناء المكشوف الذي يتوسطها، وتحيط به أروقة تقي القاعات من تأثير الشمس المباشر عليها، وتمنح فضاءُ يتحرك فيه أفراد الأسرة أثناء النهار، ومن أهم القاعات التي تتكون منها هذه المساكن المخزن الذي تخزن فيه المؤونة وخاصة منها التمور.

– الفراغات الداخلية: يحتوى القصر على فراغات داخلية تستغل كأسواق صغيرة، وبعض الفراغات الأخرى تسمى بالساحة أو الرحبة، وتتشكل في أماكن تقاطع الشوارع، ومن وظائفها تيسير الحركة في هذه الشوارع وتكسير حدة الظلام في بعض الأزقة والدروب وتهويتها، وتستعمل كأماكن للراحة أو لممارسة مختلف الأنشطة الاجتماعية كالأفراح إذا كانت تحيط بها مساكن لعائلة واحدة .

– المرافق العامة كالآبار والمجاري المائية والفقارات المخصصة لسقي البساتين وتزويد السكان بالماء.

– مبانٍ واسعة تحتوي على إسطبلات مخصصة للضيوف، وظيفتها تشبه وظيفة الفنادق في المدن الإسلامية.

– القصبات، وهي أماكن محصنة، تخصص لإقامة العائلة الحاكمة.

تأثير البيئة على اختيار مواد البناء لانجاز القصور الصحراوية

مقال: البيئة الصحراوية وأثرها على العمران والعمارة

– وادي ريغ نموذجا–

يعتبر هذا المقال مكملا للمقال السابق، فهو يبحث في العلاقة الموجودة بين الإنسان وبيئته، وكيف تصرف الإنسان للاستفادة من خيرات بيئته فيقلل بهذا من تكاليف بناء منشآته، وكيف تصرف لمواجهة قساوة البيئة التي يعيش فيها، فقد كان اختياره –حسب الدكتور– لمواد بنائه موفقا إلى حد بعيد بيّن من خلالها قدرة عالية من التحكم في خصوصيات البيئة التي يعيش فيها من جهة، والحصول على منشآت استطاعت الصمود لوقت طويل فاق في كثير من الأحيان المائة سنة << وهو ما يدل أن البنائين المحليين تمكنوا من فهم المواد المتوفرة في بيئتهم وتعاملوا معها وهم يدركون أهميتها وشدتها وضعفها >>، ص.68.

وكعادته في مقاله السابق، يذهب بنا أولا في عالم العموميات، حيث بين في الفقرة الأولى من المقال معلومات عامة عن البيئة، وقدم لنا تعريفا مختصرا لها استنبطه مما قاله الباحثون << فالبيئة بالنسبة للإنسان هي ذلك الإطار الذي يعيش فيه، والذي يحتوي على التربة والماء والهواء وما يتضمنه كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة من مكونات مادية وكائنات حية، وما يسود هذا الإطار من مظاهر شتى من طقس ومناخ ورياح وأمطار... ومن علاقات متبادلة بين هذه العناصر.>>، ص.57.

وفي الفقرة الثانية من المقال، أشار إلى خصوصيات البيئة الصحراوية التي تمثل صلب الموضوع، فهي << تتميز بمناخ حار وجاف مع ارتفاع كميات الإشعاع الشمسي صيفا، وشدة البرد شتاء، ورياح هوجاء محملة بالأتربة يصعب على المرْ رؤية ما يقابله ولو على بضع خطوات ربيعا.>>، ص.57، والسؤال الذي طرحه الدكتور هنا هو كيف تعامل البناء مع هذه الظروف الطبيعية القاسية ؟

وواصل تشريحه لخصوصيات البيئة الصحراوية من خلال الموقع الذي أقيمت عليه قصور منطقة وادي ريغ، التي تقع في الجنوب الشرقي للجزائر (تبعد عن العاصمة بـ 600 كلم)، وهذه المنطقة عرضها حوالي عشرين كيلومتر وطولها ما يقارب المائة والعشرين كيلومتر، << وتظهر على شكل واد جاف تتخلله سبخات تمتلئ بالمياه في فصل الشتاء، وعندما تجف في فصل الصيف تبقى آثار الأملاح بارزة للعيان >>، ص.58، ويحدها شمالا بلاد الزاب، وجنوبا وادي مية، وغربا ولاية ورقلة، وشرقا وادي سوف، كما تميزت بتوفر الماء منذ القدم إلى درجة أنها شدت انتباه الرحالة الأجانب الذين زاروا المنطقة، منهم فون مالتسان.

ثم كشف في العنصر الأول من المقال عن تأثير البيئة في تخطيط وتوجيه المباني، وبين كيف تعامل البناء مع الحرارة التي تعتبر أهم عامل يعاني منه الإنسان في البيئة الصحراوية، ومن أجل التغلب عليها كان البناء يعمل على الإكثار من الظل بواسطة إطالة الجدران، وتغطية الدروب والأزقة بالأقباء أو بخشب النخيل، أو بناء السقائف (عبارة عن ممر مسقوف يربط بين دارين أو جدارين)، هذا في الشوارع، أما في داخل المساكن فقد استغل الفناء لتجميع برودة الليل وتسريبها نهارا إلى داخل القاعات، وتغطية القاعات بالقباب والأقبية وبناء الساباطات التي تتقدم القاعات وتفصلها عن الفناء.

كما كان للبيئة الأثر الفعال في اختيار مواد البناء التي استلهمها البناء من محيطه، والتي يستطيع الوصول إليها بدون تعب وعناء، وهي التربة الطينية لصنع الطوب والملاط، والحجارة الكلسية التي يستخرج منها مادة الجبس المخصصة لتكسية الجدران والقباب والدعامات، وكمية قليلة جدا من الحجارة الصلبة التي تتميز بقلتها في مثل هذه البيئات.

وخصص الجزء الأخير من المقال لطريقة صناعة وجلب مواد البناء المستخدمة، وهي الطوب كمادة أساسية، والملاط الطيني، والحجارة، وخاصة منها الحجارة الكلسية، وأخيرا الخشب المجلوب من جذوع النخيل وجريدها.

1- <u>الطوب</u>: يعتبر الطوب من أفضل مواد البناء ملاءمة للبيئة الصحراوية، ويستحسن صناعته في فصل الربيع أو الخريف لاعتدال الظروف المناخية وعدم قساوتها وتمر صناعته بعدة مراحل هي:

أ- اختيار الطين المناسب ومزجه مع الماء والرمل، ولتقوية الطين أكثر يضاف له التبن أو سعف الجريد، ثم تترك العجينة تتشبع بالماء.

ب- دلك العجينة جيدا بالأرجل من طرف الصانع، وتقلب بالمعول إلى أن تصبح طرية وقابلة للتشكيل.

جـ- تصب العجينة داخل قالب خشبي مستطيل دون قاعدة لتشكيل قطع الطوب.

د- تجفف قطع الطوب في الشمس لبضعة أيام، وفي أثنائها تقلب بين الحين والآخر.

2- <u>الملاط الطيني</u>: وهو عدة أنواع:

أ- الملاط الخاص بالربط بين مواد البناء: يتم تحضيره بإضافة الماء للطين حتى نحصل على عجينة رخوة وطرية، ثم تترك فترة زمنية لإزالة الشوائب عنها.

ب- الملاط الخاص بتلبيس الجدران: يمزج الماء والطين للحصول على سائل طيني صاف، ثم يضاف له الرمل، ويخلط الكل مع بعض للحصول على ملاط لزج.

3- <u>الحجارة</u>: قلّ استعمال الصلبة منها لعدم الحاجة لها وعدم وجودها في المنطقة، في حين كثر استعمال الهشة، التي تستخرج من مقالعها الموجود في ضواحي القصر، ومن هذه الحجارة يستخرج الملاط الجبسي، الذي تتم صناعته بعد حرق الحجارة الكلسية في أفران تقليدية ثم تسحق بمهراس خشبي سميك وتغربل بغربال يصنع لهذا الغرض، ويستخدم هذا الجبس كمادة لاحمة لصلابته ولتكسية الجدران والأرضية.

كما يستخرج من الحجارة الهشة كذلك الجير بنوعيه الهوائي والمائي الذي يستعمل كملاط لاحم، أو في طلاء الجدران الخارجية للبيوت أو في أطر المداخل للتقليل من حدة الإشعاع الشمسي.

4- <u>الخشب</u>: يطغى على المباني الصحراوية استعمال جذوع النخيل لوفرتها بكثرة، حيث يتم اختيار النخلة الطويلة غير المنتجة بعد قطعها والتخلص من جميع أجزائها، وقبل استخدامها تقسم النخلة طوليا بالفأس إلى قسمين أو أربعة أقسام حسب الحاجة، ثم تغمر في ماء مالح لقتل الحشرات الضارة ولتكتسب القطعة الخشبية متانة أكبر، ثم تعرض إلى أشعة الشمس لبعض أيام حتى تجف، وتستخدم هذه الأخشاب في السقف وفي صناعة الأبواب والسلالم.

<u>الخلاصـة</u>:

من خلال هاذين المقالين تظهر جليا مكانة مثل هذه الدراسات في التعريف بآثارنا الصحراوية وإبراز مكانتها في حضارة المنطقة الموجودة فيها، لأنها تمكننا من معرفة طبيعة الصراع الذي كان بين الإنسان وبيئته وكيف استطاع استغلال ماهو موجود فيها لمواجهة قساوتها في حد ذاتها، ولما استغنى الإنسان عن هذه القاعدة أصبح يعيش أسيرا للمكيفات الهوائية صيفا وشتاءً.

هذا جزء يسير جدا مما أفادنا به الدكتور حملاوي علي – رحمه الله – في مسيرته العلمية، ونتمنى أن نكون قد وفقنا في عرضه وتوضيحه.